تأملات في الإيمان

١. الإيمان : نظرة عامة
٢. بناء الإيمان وموارده
٣. الإيمان بين الفطرة والمسؤولية
٤. تشغيل الإيمان
٥. الصلاة
٦. الصوم
٧. رحلة الحج
٨. الذكر
٩. زمن استباق الخيرات ويوم الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

١ الإيمان: نظرة عامة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان: نظرة عامة

عنـد تدبر سـلوكنا الاجتماعـي ومنظومة القيم التـي تحكم تفكيرنـا تتضح لك إحدى أهم المشكلات التي تواجهنا اليوم على مستوى الفرد والجماعة والوطن والأمة هي مشـكلة ترتيب الأولويات، ويظهر ذلك بجلاء في الخطاب الديني، وفي السـلوك الاجتماعي، وفي القرارات الإدارية، وفي إنفاق الموارد على جميع المستويات.

ومـن أبسـط الأمثلة عـلى ذلك فوضى الإنفـاق عند الأفراد، فقد تمر بسـيارتك عـلى أحد المحالّ، وتشـتري لأطفالك مثلجات بخمسـين ريالاً دون مناقشـة، ثم تمر على صيدلية لتشـتري لهم فُرش أسنان، وتبحث عن أرخص الأنواع، وتجادل في سعر بضاعة مسـؤولة عن صحة فم الإنسـان وأسـنانه ولثته، وقد تنفق في مناسبة عابرة لا داعي لها ألفي ريال، وتنام طول عمرك على مرتبة رخيصة الثمن تسبب لك تشوهات في الظهر وآلاماً في المفاصل.

وفي الجانـب الدينـي، وهو الأهم نعاني كثيراً من هذه المسـألة، بل أحياناً يرفض بعـض الوعـاظ مبـدأ الأولويات من أساسـه على الرغـم من إيمانهم بوجـود الفرض والواجب والسـنة ووجود آيات أولى من آيات في سـياقات معينة، وأنبياء أفضل من أنبيـاء، وهذا الموقف ينطلق من باب أن ليس في الدين قشـور ولب، وينتهي الأمر إلى أفئدة محشوة بالمتون وشروح المتون وبتفاصيل التفاصيل، ونشرات تلاحق الإنسان في كل مكان، تفصِّل حالات سـجود السـهو، وتحليق الأصابع، والافتراش في التشهد، وأنواع الإسبال مع الوسائل الإيضاحية بالصور عند أبواب المساجد والمكاتب.

obeikandl.com

وعندما نذكر ذلك، فغنيٌّ عن القول: إن على كل مسـلم واجباً بأن يحترم السـنة المطهرة قولاً وفعلاً وتقريراً، ولكن - وهنا تكمن المشكلة - لا بد من أن نعرف أن في أذهاننا فراغاً محسـوباً وحيزاً محدوداً إذا عظمنا عنده الصغائر والتفاصيل، فلن يتوافر فيه مكان للإدراك التلقائي[1] للمقاصد الكبرى للدين.

إن المعايشـة الواعية للسـيرة النبوية في عهدها المكي والمدني، مدرسـة مسـتمرة لترتيـب الأولويـات. تأملـوا نهي الرسـول ﷺ عن كتابـة الحديث النبـوي، وعنايته العظيمـة ﷺ بكتابـة القـرآن العظيـم وحفظـه بوصفـه مـؤشراً واضحاً عـلى ترتيب الأولويات بين النص القرآني والحديث النبوي.

المحزن أننا لم نستطع فهم هذا التمييز العظيم بين القرآن الكريم والسنة المطهرة، بـل إن الدارس في كتب الأصول يعجب لطريقة اسـتنباط الأحكام وقواعدها، حتى وصـل الأمـر ببعضهم إلى تقرير أن السـنة قاضية على القرآن، بـل إن بعض أصحاب النيات الحسـنة، يسـتعملون مصطلحـاً بدعيًّا، وذلـك بالتعبير عن القرآن والسـنة بـ (الوحيـين)، وهـو في نظري تطرف جـاء رد فعل على القرآنيين الذيـن يزعمون كفاية النـص القـرآني، لكن عندما يرد نص قرآني قاطع في أمر مـن الأمور، فإن من الداعي للتسـاؤل لجوء بعـض الفقهاء إلى تفريغه من معناه مسـتندين عـلى بعض الأحاديث، متوسلين بتخصيص العام وتقييد المطلق، وما سواهما من قواعد وضعية.

وأوضـح مثال على ذلك أننا نقـرأ في القرآن العظيم هـذا التوجيه الرباني قطعي الثبـوت وقطعي الدلالـة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. ومـع ذلـك مـازال بعض المسـلمين يقـرأ الفاتحة، والإمـام يقرأ في الصـلاة الجهريـة، اسـتناداً إلى فتوى تحيل إلى حديـث نبوي، ألا يحتاج هـذا الأمر إلى إعادة نظر؟!

(١) نقصد به الإدراك اللاواعي بحسب تقسيم علماء النفس الذين قسموا عملية التعلم إلى أربع مراتب، هي: اللاشعور وعدم القدرة، ثم الشعور مع عدم القدرة، ثم الشعور والقدرة، ثم أعلى المراتب اللاشعور مع القدرة.

obeikandi.com

ونتذكـر هنـا أن الرسـول ﷺ لم يكـن يشـجع عـلى الأسـئلة التفصيليـة وكثـرة الاسـتفتاءات، ففـي صحيـح مسـلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**إن الله يـرضى لكـم ثلاثـاً، ويكـره لكم ثلاثاً، فـيرضى لكم أن تعبـدوه، ولا تشركوا به شـيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السـؤال وإضاعـة المـال**»، ويكفـي أن نعلـم إن الاسـتفتاء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ والسـؤال بعمومـه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ قد ورد في القرآن الحكيم فقط في آيات محدودة لا تتجاوز خمس عشرة آية. يقول الدكتور خالد السلطان، مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

> «**إن كثرة الأسـئلة والاستفسـارات تؤثر في قدرة عقل الإنسـان عـلى فهم التصـور العـام للشيء، نتيجـة الانغـماس في التفاصيـل. وإن الإسراف في السـؤال يكرس ثقافـة التبعية، ويؤثر في سـلَّم الأولويات**».

ولعل كثيراً منا قد لاحظ أن بعض الشـباب المبالغ في التفاصيل فقد الإحسـاس بالمقاصد العظمى للدين، وتاريخنا الماضي والحاضر مليء بالأمثلة.

وعندمـا نبحث هذا الأمر سـنجد أن الخلل في ترتيـب الأولويات عندنا يتضح في أجلى صوره في قضية الإيمان، فهذه القضية الأسـاس الكبرى لم تنل ما تسـتحقه في خطابنا الديني ومناهجنا المدرسـية وتربيتنا، ومن ثم لم تأخذ مكانها في منظومة القيم، ولم تظهر على السلوك، ومن ثم لم نستفد من مردودها العظيم، وشَغلنا عنها في الجانب التعليمي ما يسمى مباحث العقيدة، حيث انشغل علماء العقيدة في التاريخ الإسلامي وبالـذات المدافعين عـما يعتقدونه التصور السـليم للـذات الإلهيـة، وأنفقوا جهدهم ووقتهم في جدل لا ينتهي مع من يسـمونهم «الفرق الضالة» (يلاحظ هنا أن كل فرقة تعتقد أنها على الحق، وأن غيرها فرق ضالة قليلاً أو كثيراً).

obeikandl.com

ولأن مصادر الإنسان من وقت وجهد وقدرات عقلية محدودة، فقد قَّل إنتاجهم الفكري جداً في موضوع الأثر الذي يجب أن يحدثه الإيمان في الإنسان.

ومثال بسيط على ذلك أنه يعلم كل مطلع على كتب العقائد حجم الجدل الطويل الرهيب حول تأويل الصفات، حيث قسم الأمة، واستنزف طاقات العلماء، وشحن النفوس دون الوصول إلى نتيجة.

هل استفادت الأمة خلال قرون طويلة ومجلدات هائلة من هذا الجدل، أعتقد أن الجواب على النقيض، بل تشرذمت، وشحنت النفوس، وضاع الجهد، وفقد الطرفان التركيز على الغاية.

فإن كانت إحدى عجائزنا لا تستطيع أن تتصور أي شيء فوق المادة نهائيًّا وفهمت العلو والعرش والاستواء واليد والعين بما يستطيع إدراكها فهمه، ولكن إيمانها هذا يمنعها عن ارتكاب المحرمات، ويساعدها على فعل المندوبات، والالتزام بأهداب الشريعة، ويمنحها توكلاً، ويعطيها سكينة وهدوءاً عند المصائب والأقدار، فهل من المفيد أن نتجادل مع هذه العجوز عن مسائل طبيعة الوجود وتوحيد الأسماء والصفات؟

وفي المقابل إن كان أحد المفكرين أو علماء الفلك ينزه المولى - عز وجل- عن أي تجسيم أو تشبيه حتى في اللفظ، ويعرف أن الاتجاهات في الكون ليس لها معنى إطلاقاً، فالإصبع التي تشير إلى الأعلى في الرياض تشير إلى عكس الاتجاه في جنوب البرازيل، وثلث الليل الأخير مستمر لا ينقطع، فهو يحتاج إلى التأويل؛ ليحقق التوافق بين عقله وإيمانه، ولكن إيمانه بالله - عز وجل - بهذه الصورة أحدث المطلوب من تعظيم الرب ومحبة رسوله وفعل المأمورات وترك المحرمات وتقوى الله والجهاد في سبيله، فهل نقاتله على هذا التصور؟

عند استعراض أدبيات العقيدة في التراث الإسلامي، وحتى في المؤلفات الجديدة يحزن الإنسان كثيراً أن الأمة انشغلت عن الغاية بالوسيلة، وجعلت محل الخلاف طاغياً على محل الاتفاق.

نعـود إلى قضيتنا الأسـاس، وهي بناء الإيمان الذي هو أولى أولويات الإنسـان وسـفينة نجاته، إن بناء الإيمان يشـبه بناء منزل وسـكناه وصيانته في هذه الحياة، وعلى قـدر عزيمة الإنسـان وعلى قدر جهاده سـيحدد نوع المنزل الذي يسـكنه، إن بإمكان المؤمـن أن يعيش سـعادة لا تتحقق لأي سـاكن قصر على وجـه الأرض، أمان ورضا واستقبال للأحداث والطوارئ بنفس رضية مستقرة ومواءمة مع الكون والنفس.

في تصـوري أن مـن يعيش عـلى هذه الأرض دون إيمان أشـبه بمـن يعيش دون منـزل عـلى المسـتوى المادي. تخيـل إنسـاناً دون مـأوى، لا بيت ولا كـوخ، ولا حتى خيمـة، وليـس في منطقة خالية من البشر، بل هو في وسـط الناس، أي حياة سـتكون مـن نصيبه؟ برد ومطر أو حر وشـمس وغبار ووحشـة وابتـذال... إلخ، لا أعتقد أن بالإمكان تصور مثل هذه الحياة.

قد يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يسـاعد على بناء الإيمان وصيانته وعلى أقـل تقديـر، فحسـبي أن يذكره بأهميـة الموضوع، فيشرع يسـتخدم مـا أعطاه الله من آليات وموارد (كون ـ عقل ـ وحي.. إلخ) في بناء إيمانه بشـكل راسـخ وصيانته على الدوام؛ حتى يستمتع بثمراته اليانعة.

تأمل:

تدبـروا قـول الـرب - عـز وجـل - في سـورة الأنفـال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

إذن المؤمن الحق هو مجموعة أعمال، وليس تصوراً مجرداً.